ولكن من الصحيح كذلك ان الايجارات والاسعار والضرائب والرسوم قد قفزت هي الاخرى قفزات فاقت بكثير الزيادات في الرواتب والاجور . وصحيح بان الحوانيت العربية مفتوحة وتزخر ، بصورة رئيسية ، بالبضائع والمنتوجات الاسرائيلية ، وان الفنادق والمطاعم العربية مزدهرة ، وأن مئات الالوف من العرب يستفيدون من الاتفاق القائم بين الملك حسين واسرائيل على سياسة « الجسور المفتوحة » بزيارة اسرهم وذويهم في المناطق المحتلة، ولكن ان يستخلص المرء من كل ما سبق قوله ان العرب في فلسطين قد قبلوا الوضع وانهم « يتعاونون مع العدو » وانهم تخاذلوا أو استسلموا ، فلا ينم هذا الا عن تفاؤل غر او تطرف اعمى كما لا يصدر الا عن جاهل او هروبي .

وتنطوي هذه الاحكام التي تلقى جزافا بان « اهوال الفلسطينيين هي على ما يرام » على نقد مبطن للفلسطينيين لانهم لم يقدموا على الانتحار الجماعي بتجويع انفسهم حتى الموت احتجاجا على الاحتلال. بيد انه لم يسجل التاريخ في اي مكان من دنيا العرب ان السكان العرب قد فضلوا لانفسهم ولاطفالهم الموت البطيء المؤلم « المشرف » على العيش في ظل الحكم البريطاني او الفرنسي او الايطالي ، مكتفين ، هنا ، بذكر موجات الاحتلال الاجنبي القريبة الى الذاكرة . والفلسطينيون هم ايضا ، كالآخرين ، لديهم غريزة طبيعية قوية للحفاظ على النوع والجنس ، وهم متشبثون حتى آخر رمق بالبقاء في فلسطين الى ان تتحرر .

ان الوضع في المناطق المحتلة كما يستبين من الداخل لناظري اولئك الذين بوسعهم النفاذ ببصيرتهم الى ما وراء الواجهة الخادعة التي تبدو اعتيادية رتيبة هو وضع محزن غاية الحزن . ان خمس سنوات من الاحتلال في ظل نظام عسكري بطاش حديدي التنظيم متوجه بجنون الى تطبيق سياسة تهويد فلسطين والى افراغها من سكانها العرب ان تيسر له ذلك ، كان لها نتائج مدمرة . ان ما يتراءى انه « قبول » ما هو في واقع الامر الا غلالة رقيقة من المظاهر لذر الرماد في العيون ، انه قناع وقاية ودرع حماية من حرب استنزاف يشنها الاسرائيليون عليهم طوال سنوات خمس مستخدمين اسلحة الارهاب والبطش والتنكيل لتحطيم كافة مقومات هويتهم القومية والاجتماعية والثقافية . ان مظاهر « القبول » هذه هي وقاء دفاعي ضد التأثيرات المدمرة جسميا وذهنيا لتعاقب موجات انفلات الآمال العارمة ونكسات اليأس القاتلة . انها وقاء دفاعي ضد الذوبان البطيء للثقة والايمان في كل شيء تراءى لهم في يوم ما أنه رمز للعدالة والقيم والانسانية . انها وقاء دفاعي ضد الايقان المبرح بأنهم غدروا وطعنوا في ظهورهم. ان مظاهر « القبول » هذه هي ملجأ وحمى مما يعانونه من مشاعر العزلة والخسران .

ان يسلك سكان المناطق المحتلة ويعيشوا بصورة « اعتيادية » لا يعدو كونه وسيلة لاغراق صراخ الصمت الرهيب طوال سنتين من وقف اطلاق النار الذي اطلق عوامل الاضطراب من عنانها فتردد رجع صداها عاليا في انحاء العالم العربي ، وما هو الا هروب من اغراءات تعليل النفس بآمال جديدة ووعود جديدة وقرارات جديدة ومراجعات جديدة للمواقف والامور وهي اغراءات تؤدي بصاحبها الى الجنون، وما هو الا هروب من الشوق الى استعجال الاحداث ومشاعر العجز والخذلان التي تغدو لا تطاق وهم يرون الصهيونيين يغيرون واقع الارض والبلاد ويبنون شيئا فشيئا الصرح الذي « سيؤكد واقعيا » ان فلسطين لم تكن عربية في يوم من الايام ، هذا بينما العرب من حولهم يتخبطون في عمه « ضباب » من صنع أيديهم .

بعد انقضاء خمس سنوات من الاحتلال لم تصبح المدينة المقدسة ، بعد ، يهودية بصورة تامة ، وان كانت لم تعد عربية . لقد سن قانون ضم القدس في حزيران ١٩٦٧ بغطرسة وصلف وقوة على جميع أجزاء المدينة العربية وما جاورها من مناطق الحقها الاسرائيليون بما دعوه « القدس الكبرى » . وفي المدينة القديمة داخل السور حل حي يهودي جديد وبنايات جديدة وساحة خالية عارية تواجه الحرم الشريف محل مئات البيوت والحوانيت والبنايات والمدارس والمساجد العربية. وطراز العمران عند المستعمرين الجدد مغاير وغريب في روحه وأسلوبه يعلن ، بصورة صارخة، عن الهوية اليهودية للمكان . وقد حولت على عجل ، القدس الشرقية ومناطق واسعة من التلال المتفتحة حولها بأبهة ، وما جاورها من وديان الى « احياء يهودية من طراز راق » ، اذ انشئت عليها غابات من العمارات السكنية الشاهقة تؤجر شققها أو تباع بأسعار باهظة الى المهاجرين اليهود من « الدرجة العليا » الذين مهمتهم الاولى هي دمغ « عاصمة اسرائيل »